

أسس في طلب العلم الشرعي



إعداد

محمد عبد الله ابن التميمين
إدارة البحوث

www.iacad.gov.ae
04 6087777
الرقية رسالة إسلامية وسطية
فتوى 8 0 0 3 3 3 6

فيظهر أثر ما تعلم في سلوكه وفي قلبه، والعمل بالعلم معين على حفظه؛ قال أحد السلف: "كنا نستعين بالحديث على حفظه بالعمل". وليكن ذاكراً أنّ المقصود من العلم خشية الله تعالى الباعثة على تحسين العمل، ذكر معروف الكرخي يوماً في مجلس الإمام أحمد، فقال بعض الحاضرين: هو قصير العلم! - أراد الحظ من قدره - فقال أحمد: أمسك عافاك الله، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟ وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال لأبيه: هل كان مع معروف شيء من العلم؟ قال: يا بني، كان معه رأس العلم خشية الله. (طبقات الحنابلة: ١/ ٣٨٢)

فشمّر أخي عن ساعد الجد واستعن بالله فلا حول ولا قوة إلا به، وأحسن القصد وصدق في الطلب فمن جد وجد ومن زرع حصد، وخزائن الله ملأى ونفحاته هطالة فتعرض لها، والله يقضي لي ولك بالخير ويتم لي ولك المراد، نسأله سبحانه أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا، وأن يصلي ويسلم على هادي الخلق ومعلمهم الخير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، والحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات. (١)

(١) راجع للاستزادة: - الحث على طلب العلم، لأبي هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ت ٤٦٢هـ)، - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، - أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني (ت ٥٦٢هـ)، - تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) - أدب المتعلم تجاه المعلم في تاريخنا العلمي تأليف الدكتور عبد الحكيم الأنيس حفظه الله.

ثامناً: ينبغي لطالب العلم إذا تعلم مسألة أن ينوي تعليمها كل من هو من أهلها، وكذلك إذا علمها نوى التوصل إلى تعليم كل من يتعلم ممن علمه، وهذا من تنمية النيات، وهو متجر لا نهاية لربحه!

تاسعاً: العلم فاز به الحُفاظ، فلا بد من الحفظ، وتلك سيما السلف، وأعون شيء على الحفظ تقوى الله والابتعاد عن المعاصي؛ سأل رجل مالك بن أنس: يا أبا عبد الله، هل يصلح لهذا الحفظ شيء؟ قال: إن كان يصلح له شيء فترك المعاصي! وقال بشر بن الحارث: إن أردت أن تلقن العلم فلا تعص. قال بعضهم: سألت وكيعاً (هو ابن الجراح) قلت: يا أبا سفيان تعلم شيئاً للحفظ؟ قال: ترك المعاصي عون على الحفظ. ونظم ذلك بعضهم بقوله:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور

ونور الله لا يعطى لعاص

وليتحرر أوقات فراغ القلب فذلك أعون على استقرار المقروء في الحفظ، والليل أقرب الأوقات إلى ذلك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل: ٦) قال مالك: (أقوم قِيلاً) هُدوا من القلب وفراغاً له. (أحكام القرآن لابن العربي: ٤ / ٣٢٩).

عاشراً: على طالب العلم أن يعمل بما تعلم وأن ينشره، فإن العلم يزيد بالإنفاق، وزكاته بذله لمستحقه، وهو خير ما ينفع به المرء أخاه، وأحق الناس بنفعه نفسه فليبدأ بها،

سادساً: ينبغي لطالب العلم أن يتدرج في طلبه من الأهم إلى المهم، وأن يستعين بمشورة ذوي الرأي والخبرة، فالوقت تلاحقه أشغال لا تنتهي، وعوارض لا تدفع، والهمم ضعيفة والأذهان شاردة، وأرى أنه لو جعل الطالب لنفسه جدولاً يومياً، واختار في الفن الذي يود تعلمه متناً معتمداً، وفرغ من جدول ما يجلس فيه إلى أستاذ شيخ يفتح له مغلق ذلك المتن ويشرح عبارته، فإن هذه الطريقة أرجى نفعاً، وأقرب لما كان عليه سلف هذه الأمة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

أما المطالعات الحرة، والنظر غير الموجه، فليست استفادة الناس منهما واحدة، وليست العاقبة مضمونة، فلا بد من "تشييع" العلم، أي أخذه عن شيخ، ولا يوثق بعلم من لا شيخ له، وما هو بآمن من الخطأ والتصحيح!

فيلزم طالب العلم الشرعي أن يصدق في البحث عمن يتعلم عليه، وليتخير من يرضى دينه وسلوكه، فإن عدوى البدعة سريعة، وقديماً قال الحسن البصري رضي الله عنه: "لا تمكن أذنك من صاحب هوى فيمرض قلبك". (شعب الإيمان: ٧ / ٦٠)

سابعاً: على طالب العلم الشرعي أن يستسهل كل تعب أو مشقة في سبيل غايته النبيلة - وليتذكر وهو في غمرة اشتغاله، وتعاطيه لما يتوفر له اليوم من وسائل التحصيل والاتصال - حال السلف وما كانوا يعانون من مشاق في طلب العلم، حتى إن عدداً منهم يسافر المسافة البعيدة لحديث واحد، فمن يخطب الحسنة لم يغله المهر!

الحمد لله الذي رفع العلماء في الدارين أعلى المنازل، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١٠)، وفضلهم على من سواهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٨) وجعل خشيته تعالى لازمة للعلم ولا تكون إلا بالمعرفة، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٧)، وصلى وسلم على من دل الناس على الخير وفقهم في الدين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد : فإن كل خير مُكتسب في العالم إنما يُكتسب بالعلم، والجهل سبب في كل شر، وبالعلم فضل الله آدم على الملائكة وأمرهم بالسجود له، واستحق الخلافة في الأرض. وفضل العلم ذائع مشهور، والمؤلفات فيه معروفة منشورة، وسبيل اكتساب العلم المعتاد التعلُّم، قال الصادق المصدوق عليه السلام : "إنما العلم بالتعلم" (حديث حسن أخرجه الطبراني وغيره، فتح الباري: ٣٠٨/١).

وطلب العلم له آدابٌ وأسسٌ لا بد من البناء عليها، والسير وفق موجهاتها حتى تُوصل إلى الغرض المنشود بسلام وحسن رعاية.. وهذه الآداب كثيرة وقد كفانا المؤلفون من سلف الأمة وخلفهم عناء تدوينها والبحث عنها، لكنها في كتبهم متناثرة ومطولة، والناس اليوم في سباق مع الزمن، وتحت تأثير الوسائل الرقمية في عجلة من أمرهم، ميالون إلى المقتطفات والمطويات، ولا تثريب عليهم في ذلك ما دام التوجه العام هو اكتساب الخير والاستزادة من العلم.

دونك إذن مطويةٌ تقدّم لك عزيزي القارئ أهم أسس طلب العلم الشرعي واكتسابه، ملخّصةً كلام العلماء ومقتبسةً من نورهم، ليس لها مما تسوقه إلا الوساطة والتقريب والتنبية، والدال على الخير كفاعله.

أُسُسٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ

أولاً : ليعقد المتعلم قلبه على أن هذا الطريق الذي اختار: طريق العلم، هو الطريق الأسرع والأقرب إلى الرفعة الدنيوية والأخروية، فقيمة الإنسان ما يعلم، والمرء مخبوء تحت لسانه، وهو بأصغريه: قلبه ولسانه، قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ٨٣)، وقال عليه السلام : "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة" (أخرجه الترمذي وحسنه).

فالعلم سرٌّ من أسرار الله في هذا الكون: من تمسك بحبله أوصله إلى غايته، ورفع قدره ونشر ذكره، اسمع إلى ما قيل:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم

على الهدى لمن استهدى أدلاءً

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه

والجاهلون لأهل العلم أعداء

ثانياً : عليه أن يريد بعلمه وجه الله، ويخلص نيته من شوائب الرياء والسمعة وحب الذكر والمنزلة بين الناس، فتلك شوائب تضره ظاهراً وباطناً، أما ظاهراً: فإنه لا ينتفع بعلمه، ولا يوضع له القبول، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: "إنما يعطى الناس على قدر نياتهم"، وعنه: "إنما يحفظ الرجل على قدر نيته"، وتكون منفعة الناس بعلمه على قدر إخلاصه في نيته.

وأما باطناً: فلما يلحقه من ظلمة البصيرة بمصيبة فساد القصد، وما يعرضه له ذلك من سوء الجزاء إن لم يتداركه ربه، فيرزقه تحسين نيته، ويغفر له.

وليحذر طالب العلم الشرعي من طلبه ليجادل به السفهاء، أو ليباهي به العلماء، أو ليصرف وجوه الناس إليه، فقد جاء في ذلك الوعيد الشديد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما يطلب علماً ليعمل به، ويعلمه غيره، ولهذا يراد العلم.

ثالثاً : ينبغي لطالب العلم الشرعي أن يحسن ظاهره وباطنه، وأفعاله وأقواله، فهو محل نظر الخلق وقدوتهم، ونعمة الله عليه بتوفيقه إياه إلى التعلم كبيرة، وكلما عظمت نعمة الله اشتدت نقمته: تأمل قوله عز وجل: ﴿يَلْبَسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠)، قال الإمام مالك رحمه الله: "حق على طالب العلم أن يكون فيه وقارٌ وسكينةٌ، وخشيةٌ واتباعٌ لأثر من مضى"، وقال الحسن البصري رحمه الله: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في وجهه وتخشعه ولسانه ويده وصلواته!"

رابعاً : على طالب العلم أن يحدد هدفه بدقة، وهذه النقطة التي هي عند الناس اليوم من صفات الهدف الذكي سبق إليها المتقدمون، وكانوا يوجهون المتعلم إلى أن يركز في ترتيب الفنون والعلوم، ويقصد أقصى استفادة من وقته، وكانوا هم رضي الله عنهم أنموذجاً نادراً في إدارة الوقت والاستفادة منه، فيفضل أحدهم تناول طعامه سُفوفاً - مما يُسَفّ - على تناوله مما يُمضغ، ليستفيد من فرق الزمن المستغرق في المضغ والسفّ!، ويشغل أحدهم أثناء لقاء الإخوان بتقطيع الورق وبري الأفلام ضناً بوقته أن يضيع في غير ما له صلة بالعلم، وحديث عنهم في هذا المجال ولا حرج، فالعمر عندهم رأس مال عزيز:

والعمر مدته كمثل دراهم

بيد الفتى يشري بها حاجاته

خامساً : على طالب العلم أن يتوجه بكل قلبه إلى مبتغاه، فالعلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، وأضر شيء على الطالب تشتيت الذهن وعدم التركيز، فجمعُ الهمة والاستغراق في الهدف أضمن للنجاح وأسرع في بلوغ الغاية، وهو من تمام العقل، ألا ترى مالكا لقب يحيى بن يحيى الليثي عاقل الأندلس!، لأنه لم يذهب لرؤية الفيل حين جاء إلى المدينة، فقال له مالك: ما لك لا تخرج فتراه لأنه لا يكون بالأندلس؟ فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أجد لأنظر إلى الفيل!، ومكث الشيخ خليل بن إسحاق المالكي عشرين سنة ما رأى نيل مصر من شدة اشتغاله بما هو مقبل عليه، وهناك قصص للسلف في جمع الهمة وصدق التوجه، تعدُّ زاداً في التأسّي والتمثّل.